صناعة المجتمعات

إن ما حدث وما سيحدث في المنطقة العربية من أحداث ، هي على درجة كبيرة من الخطورة ، هذه الأحداث ــ بالنظر إلى تسلسلها ــ لم تكن ظرفية ولا هي وليدة لمشاعر طارئة انتابت الإدارة الأمريكية للرد على ما حدث لها . إنما هي مخططات مرسومة ومقررة وتسير بوتيرة واضحة نحو أهداف محددة ، استغرقت فترات طويلة من الجهود والدراسات المتواصلة الأمر المذهل حقاً ، هو أن هذه الأهداف معلنة بشكل واضح وإن جاءت في الغالب بأسلوب هوليودي ذا بريق يخلب الأبصار ، حتى يمكن ابتلاع الطعم برضي ، أو تخفيف وقع الصورة .

فلا أحد في العالم ــ وأمريكا بالدرجة الأولى ــ يصدق بأننا نصدق إن أمريكا تتحمل دفع هذه التكاليف الباهظة وتفقد أبنائها ، من أجل أن يتمتع المواطن العراقي بالديمقراطية !!! ... فالعلم كله ــ بما فيه أمريكا ــ يدرك أن المسعى من وراء كل ذلك هو تحقيق هدف حاسم ونهائي ، وهو أمركة العالم ... فإذا كانت الصدفة هي التي وضعت العراق في طريق هذا الهدف ، إلا أنها ــ في الحقيقة ــ لم تكن صدفة بصورة كلية ، أعنى أنه كان من الممكن أن يكون أي بلد أخر في هذه المنطقة ، وليس العراق بالذات ولا نظامه السياسي ولا عشقاً في سواد عيون العراقيين !!! ...

لأن الحملة الأمريكية على هذه المنطقة تدخل تحت بند معلن بشكل سافر وهو إعادة صياغة المنطقة العربية . وهو هدف جذري وأساسي ، تسعى أمريكا بشتى الطرق والوسائل إلى تحقيقه ، وهي تعرف مقدماً الثمن الذي يمكن أن يدفع إذا فسر مبدأ " إعادة صياغة المنطقة " على نحو صحيح ، إلا أن أمريكا لديها اليقين الكامل من قدرتها على تحقيق ذلك بأرخص الأثمان ، لذلك فهي بدأت بالفعل بتنفيذه !!! ...

فماذا يعني ذلك !!! ...

الحقيقة إذا ما أردنا أن نرصد الصورة الصحيحة ، بعيداً عن الكلمات البراقة وأن يكون لكلامنا معنى ، فإن المطلب الحقيقي لأمريكا من هذه المنطقة ، هو صياغة مجتمعات عربية جديدة تتلاءم مع الذهنية والأفكار الأمريكية ، أي بمواصفات عربية في الشكل واللغة ، أما المبادئ والأسس الدينية والثقافية والاجتماعية والنفسية فهي ستعيد تصنيعها وفق أسس المنظور الأمريكي الصرف .

إن وضع الأمور على هذا النحو ، فإن المنظر سيبدو لنا كارثيا وستتوارى أمام هذه الصورة الأساسية ، بقية الشعارات ــ أو الأهداف ــ التي رفعت ، فلا نظام حكم العراق ولا المعارضة ولا أسلحة الدمار الشامل ولا الدكتاتورية ولا النفط يستحق من أمريكا كل هذه الحشود والتضحيات ، فحجم الحشود العسكرية والسياسية الأمريكية ،

لا تعنى أن المواجهة مع العراق بهذا الحجم ، إنما هذه الحشود هي تعبير عن حجم الأهداف ــ المعلنة والمستترة ــ التي تسعى أمريكا إلى تحقيقها ... خصوصاً وأن أمريكا لا تريد احتلالاً عسكرياً دائم التواجد ــ أي احتلال بالمعنى التقليدي ــ فالآلة العسكرية الأمريكية سترحل عاجلاً أم أجلاً . وذلك عندما وعندما فقد ، تستطيع أمريكا إعادة تصنيع المجتمعات في هذه المنطقة . وتصبح هذه المنطقة أمريكية ربما أكثر من أمريكا ذاتها .

لكن هل يمكن تصنيع المجتمعات ؟! .. وهل تستطيع امريكا تصنيع هذه المجتمعات ؟! بكل ما تعنيه كلمة (صناعة) وكلمة (مجتمع) ؟ ! .... أم أن الأمر كما يقول الحكماء العرب ، مجرد إجراء تعديلات في أنظمة الحكم وفرض بعض القوانين لم تكن موجودة في هذه المجتمعات وتراها أمريكا صحيحة وضرورية !!.

إن مثل هذه الأسئلة ، ربما يكون طرحها قد فات أوانه ، أعنى أننا نشاهد مراحل التنفيذ الفعلي ، لمخططات كانت قد وضعت منذ أحقاب طويلة ، إلى درجة أن السؤال لم يعد : هل تستطيع أمريكا تصنيع المجتمعات ، إنما أصبح السؤال : ما هو شكل المجتمعات التي تريده أمريكا ؟! .. وهذا تحول على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية ، إذ تحول من سؤال عن تصورات ومفاهيم إلى سؤال وصفي لما هو كائن بالفعل ، على أنه لا يجب أن يفهم هنا من التصورات والمفاهيم

هي مجرد شعارات أو أحلام ، إنما هي نتائج مستخلصة ومبنية على المئات من الدراسات ، شارك فيها الآلاف من العلماء والخبراء والجامعات . وفي جزء منها شارك فيها العرب ، الذين قاموا بدراسات دقيقة عن أوطانهم في الجامعات الأمريكية ، وإن كان هذا الجانب ضئيل الأهمية ، خصوصاً في ظل التدفق الهائل للمعلومات التي حققتها ثورة الاتصالات .

إن مبدأ إعادة صياغة المنطقة العربية ، لا يعني فقط فرض القوانين أو الاحتلال العسكري أو نهب الثروات أو تغيير الخارطة السياسية ــ رغم أن كل واحد من هذه الأسباب يمثل كارثة . إنما هو في الأساس إحلال مبادئ جديدة وعلاقات جديدة ، مع إيجاد ذهنية مختلفة تستوعب هذه المبادئ وتسير وفق منهجها ، في كافة الاتجاهات الدينية والتاريخية والاجتماعية والنفسية والسياسية والاقتصادية وإحلال قيم جديدة او تعديل بعض القيم حتى يتم التفكير والسلوك العربي بالطريقة الأمريكية ذاتها تمهيداً لأمركة العالم .

إن الهدف الأمريكي الأساسي ، هو السيطرة على العالم كله الذي تعتبره حقاً شرعياً ، بما تمتلكه من مقومات يجعلها سيدة العالم الوحيدة . ولكي تحقق هذا الهدف ، مع اختلاف شعوب وحضارات الأرض ، فانها تنتهج منهجاً ذا مراحل متعددة ويتسم بالمرونة ، أي أن لكل مرحلة أهدافها الخاصة بها التي تتفق مع الخصائص

المحلية لكل مجتمع أو منطقة ، إلا أن هذا المنهج في التحليل النهائي يصب في الغايات الأمريكية . حتى ان كان ذلك عن طريق افتعال الأحداث وتوجيهها نحو وجهات محددة . أو ترتكب أفعالاً تتناقض مع ما هو معلن من أهدافها ، لأن المطلوب هو أن تكون أفعال أو ردود أفعال المجتمعات المختلفة ، ضمن دائرة الحدث . أما الفعل وردود الفعل والحق والباطل والصح والخطأ . فهي أمور نسبية تتحقق قيمتها من النتائج التي تؤدي إليها الأحداث والتي تحرص أمريكا على أن تكون في صالحها بأية طريقة .

لذلك فإن ما تفعله أمريكا في هذه المنطقة ، لم يكن رداً على السيناريو المتقن في **11** سبتمبر ، ولا هي فكرة طارئة خطرت في ذهن الإدارة الأمريكية ، ولا هي عشقاً في دمقرطة المنطقة العربية ، لكي تنعم شعوبها بالحرية والأمن ، وهذا ما يفسر الأفتراب المباشر والمفاجئ من هذه المنطقة خصوصاً وإن أمريكا لديها رعب مرضى من هذه المنطقة ، فهي على مدار كل الحقب كانت تتفادي ملامسة مشاكل هذه المنطقة بشكل مباشر ، لأنها تدرك بأنها منطقة حساسة ومعبأة إلى حافتها بالمشاكل المعقدة المرئية وغير المرئية ، إلى درجة أن أي حل يمكن أن يقدم لأية مشكلة ، إنما هو نموذج سرطاني من المشاكل المستجدة نتيجة له ، والعراق نموذج لذلك .

رغم ادراك أمريكا لكل تلك الحقائق وغيرها ، إلا أنها رأت أن ذلك يمثل فرصة حقيقية لتحقيق نجاحاً ساحقاً ــ خصوصاً في ظل ضعف وعجز شبه كامل ــ ليكون درساً مفيداً لبقية أقطار العالم . ولم يكن ذلك عن طريق تحريك الربوت العسكري فقط ، بل أنها قلبت الصورة واتجهت نحو الأعماق حيث أسس ومبادئ وغايات المجتمعات ذاتها . فما هو موجود أمامها الآن يمكن تدميره ، إنما الهدف هو إلغاء التاريخ والتحكم في المستقبل . وهذا يبدو في غاية الوضوح من حدثين يرمزان إلى هذه المعاني وهما نهب وتدمير المتحف العراقي ومكتبة المخطوطات الوطنية . والأخر هو حماية القوات الأمريكية لوزارة النفط العراقية . فهذين الحدثين يعطيان صورة صحيحة وحقيقية للأهداف الأمريكية ، فهي تريد تدمير وإلغاء تاريخ هذا البلد ــ والعالم العربي ــ من ناحية ومن ناحية أخرى وضع اليد على حاضر هذا الشعوب ومستقبلها عن طريق التحكم في ثرواته .

إن السعي لتحقيق الأهداف الأمريكية ، لم يبدأ الآن ولم يكن بغير أسس وقواعد وأساليب ، إنما بدأ منذ مراحل مبكرة لاكتشاف أمريكا نفسها كقوة عظمى . وهي في سبيل ذلك تستند إلى عوامل عديدة ومختلفة ، كالعوامل التاريخية والنفسية والعلمية والاقتصادية والعسكرية وغيرها . وهي عوامل أساسية وقوية إلى درجة أنها أعادت لأمريكا عقلية (الكابوي) فالعالم هو الأرض الجديدة .

والأمريكيون هم المهاجرون إليها . أما بقية سكان العالم فهم الهنود الحمر . الذين سيكون مصيرهم متحفياً احتفالياً فقط . أي أن هذه العوامل هي التي صنعت العقلية الأمريكية الحالية . وجعلتها تدرك إمكانية إعادة صياغة المجتمعات الأخرى وتصنيعها وفق الأنماط المطلوبة .

على أننا من أجل تقديم صورة أكثر وضوحاً ودقة ، لن نقوم برصد تلك العوامل وفق تسلسلها التاريخي ، إنما دراسة كل فكرة أو عامل بشكل مستقل ولكنه مترابط في الوقت ذاته مع العوامل الأخرى ، لأن هناك العديد من العوامل متداخلة مع بعضها موضوعياً وزمنياً ، إلا أنها تصب كلها في المبادئ الأساسية والأفكار العامة التي تجعل أمريكا تسعى لتحقيق صناعة جديدة ، هي صناعة المجتمعات بالمواصفات والخصائص الأمريكية .

العوامل التي ساهمت في إمكانية صناعة المجتمعات :ـ

العامل الأول :ـ التاريخ

استفادت أمريكا من التجارب التاريخية العديدة ، سواء تجاربها التاريخية الخاصة أو تجارب المجتمعات الأخرى وهي التجارب التي أدت إلى إيجاد مجتمعات جديدة ومختلفة عما كان سائداً . مما أعطي مؤشرات إلى إمكانية صناعة المجتمعات بصياغات جديدة . ولما كانت هذه المجتمعات المختلفة تتفاوت تجاربها في النوعية

والعمق والشمول . فإن التعامل معها تحكمه مرونة منهجيـــة تـــسمح باستيعاب كل هذه التجارب بإنشاء المجتمعات .

ويمكن تقسيم إنشاء المجتمعات طبقاً لدرجـــة التـــدخل والـــتحكم كالآتي :ـــ

1 ـــ الإنشاء التلقائي :ـــ

وهي المجتمعات التي تم تكوينها دون تعمد أو قصد لهذا التكوين ، عن طريق خليط من الأجناس يحملون ثقافات وعادات ولغات وطرق تفكير مختلفة إلى أن أصبحوا يمثلون ، في صورة عامـــة ، مجتمعـــاً واحداً له ثقافته وعاداته وطرق تفكيره . ومن أبرز التجارب في هذا المجال أمريكا واستراليا ونيوزيلندا .

ففي تجربة التاريخ الأمريكي ذاته . نجد أن المهاجرين الأوائـــل الذين استوطنوا أرض الهنـــود الحمـــر ، لـــم يكونـــوا أمـــريكيين . إنما هم خليط من المغامرين والمجرمين الفـــارين وذوي الأطمـــاع ، جاءوا من بقاع مختلفة من العالم . إلا أن الأغلبية الكاســـحة كـــانوا من أوروبا وقد سعي هؤلاء إلى أرض الهنود الحمر ، معبأين بالعديد من الأفكار والأحلام في الغنى والتملك . أعني أنهم كـــانوا يفكـــرون بكل شيء باستثناء أن يشيدوا مجتمعاً أمريكيا . فهذه لم تكن لتخطـــر على بالهم ولا كانت مسعاهم . فكل مهاجر كان مـــزودا بتـــصورات محددة عن أطماعه الخاصة . ولما وجدوا أن هـــذه الأرض يـــسكنها

أصحابها الحقيقيون ، اضطروا ــ تحت وطأة المــصالح الفرديــة ــ إلى عقد التحالفات مع أمثالهم من المهاجرين الجدد ضد الهنود ، حتى وإن كان ذلك على حساب تقسيم الغنائم . ثم أصبح هذا السلوك عرفاً سائداً بين المهاجرين البيض وهكذا بدأت تظهــر ملامــح القــوانين في الأرض الجديدة .

أما الهنود الحمر فلم يكونوا مسالمين على الدوام ، إلى درجة عدم إبــداء الغــضب ، فالحقيقــة أنهــم فرســان ومقــاتلين شرســين ، إلا أن أفكارهم وعاداتهم وأسلحتهم لم تكن معدة لصد هــذا الغــزو ، لذلك لم يتمكنوا من الصمود طويلاً ، أمام هؤلاء الذين كانوا مدفوعين بأحلام جامحة في الثروة والامتلاك ، ومزودين بأسلحة فتاكة وسريعة تقتل عن بعد دون التحام أو موجهة مباشرة في الغالب . كالمسدسات والبنادق والمدافع وربما هذا القتل عن بعد فاجــأ الهنــود وصــدمهم كما أنه أزاح عن المهاجرين الكثير من الشعور بالألم ، الذي يحدثــه قتل الإنسان لأخيه الإنسان وجهاً لوجه ، إلى درجة أن هذا المهــاجر يستطيع أن ينام مباشرة بعد إفناء قبيلة هندية كاملة بأطفالها ونــسائها وشيوخها ، إلا أنه لا يستطيع أن ينام إذا تألم كلبه أو إذا فقد حــصانه حافره !! ..

إن المواجهة مع الهنــود لــم تكــن عادلــة علــى أي نحــو ، كما أن النتيجة كانت قد تقررت ، خصوصاً وأن الفرسان الهنود لــم

يستوعبوا ما يحدث . فقد قاتلوا الغزاة بالطريقة ذاتها ، التي كانوا يتقاتلون بها مع بعضهم البعض ، وبالقيم ذاتها . وبأسلحتهم الفردية القديمة كالسهام والرماح . فيما كان الغزاة يحملون أخر ما وصلت إليه صناعة السلاح في ذلك الوقت .... فكانت النتيجة ــ إحصائياً ــ غير قابلة للمقارنة . وفي نتيجة حاسمة ونهائية تمت إبادة شعب كامل . ولم يبق منه إلا نماذج تراثية .

وحينما أراد المنتصرون تقسيم الغنائم وتقرير ما يمكن عمله ، ووضع الاتفاقيات التي تضمن حقوق وواجبات كل فرد ، انقسموا إلى عدة اتجاهات انحسرت في النهاية إلى شمال وجنوب ، ويضم كل طرف العديد من الولايات ، وذلك بسبب ترتيب فئات المجتمع الجديد وفق لون البشرة والعيون . ولما كانت الأغلبية القوية من ذوي البشرة الناصعة البياض والعيون الزرقاء ، فكان من حقها الحكم والسيادة ، ثم تدرجت القائمة بحسب اللون ، وكان الزنوج يقبعون ــ بحكم هذا التصنيف ــ في أخر القائمة .. فبرزت مشكلة السود .

خلافاً للهنود الحمر ، الذين كانوا يمثلون مجتمعات راسخة ومنظمة لها عاداتها ومعتقداتها وسلوكها ، وكانوا يتواجدون فوق أرض واحدة كقبائل ومجموعات ، فإن الزنوج الذين جلبوا من افريقيا تحت مسمي العبيد ، لم يهاجروا إلى أمريكا لمثل الأسباب التي هاجر بها البيض من أوروبا ، إلا أنهم في النهاية مهاجرون أفراد لا رابط

بينهم إلا لون بشرتهم ومصيرهم القاسي . أما بقيـــة الأســـباب فهـــي متعادلة بينهم وبين البيض ، إلا ان هذه الأسباب المتعادلـــة اختفـــت أو لم ينظر إليها.

لهذا فإن مواجهة الزنوج اختلفت عن مواجهة الهنـــود الحمـــر ، فالزنجي كفرد والذى أحضر مـــن أفريقيـــا ذاق العـــذاب والجـــوع والمهانة ، ولم يكن باستطاعته فعل أي شيء يذكر . لهذا فإن مواجهة الزنوج كانت أكثر سهولة ، حيث تم إخضاعهم وبصورة شبه كاملـــة إلى تصورات وضرورات المجتمع الأبيض الجديد .

إن مقدمات تكوين المجتمع الأمريكي بشكله التلقائي ، مـــا كـــان لتعطي النتائج التي حصلت بالفعـــل ، وأخرجـــت مجتمعـــاً جديـــداً له خصوصيته وأسسه الفلسفية ومناهجه ، التي اتسمت بطابع عملـــي يرتكن إلى المنفعة ، فيصبح الحق والخير والصحيح فيما يؤدي إليـــه العمل من نتائج ، فالأفكار ــ والقوانين ــ ليست نهائية ولا مطلقـــة ، إنما تتوقف على الفائدة ، كما أنه لا يهتم كثيراً بالعمق التاريخي لأيـــة فكرة ، إنما ينظر إليها من الناحية العملية التـــي مـــن أهـــم ســـماتها هنا ما يمكن ان نطلق عليه " المرونة المتماسكة " ففي حالة المجتمـــع الأمريكي المكون من خليط هائل من الأجنـــاس والأديـــان واللغـــات إلا أن هذه التناقضات تضمها صورة لفسيفساء واحدة . فرغم اختلاف

الألوان ومواقعها وحجمها إلا أنها في النهايـــة جـــزء أساســـي مـــن الصورة .

فالمجتمع الأمريكي هو خليط مـــن أغلـــب الأجنـــاس البـــشرية إن لم يكن كلها . وهذه الأجناس المختلفة هي بالـــضبط مـــا تكـــون المجتمع الأمريكي . أعني أن ما يربط كل من الايرلندي والـــصيني والبولندي والأفريقي والسويدي والعربي داخل المجتمـــع الأمريكـــي هو أمريكا نفسها . وهم في هذه الحالة أمريكيـــون . أمـــا كـــل فئـــة اجتماعية في ذاتها أو مجموعة أفراد من بلد مـــا ، فهـــم متميـــزون بخصوصيتهم الذاتية . التي لا تتعداهم إلـــى غيـــرهم مـــن الفئـــات الأخرى . فالامريكي الإيطالي في عائلته يمارس عاداته الخاصـــة ــ إن اراد ــ كما يمارسها أي إيطالي في إيطاليا إلا أن هذه الممارســـة محصورة في هذا النطاق ولا تمس غيـــره مـــن الفئـــات الأخـــرى وألا ينزعج جاره الياباني من ذلك .

هذه البنية المرنة والمتماسكة التي صنعتها أمريكا ، لضبط تكوين المجتمع المتعدد والتلقائي ، استطاعت احتواء كل ثقافات العالم داخل المجتمع الأمريكي ربما يكون هذا العمل هو الذي أعطي دفعات قوية ومبررة لإعادة صياغة العـــالم وأمركتـــه . إذ ــ كمـــا يعتقـــدون ــ لا تتعدي الأمر أن يكون توسيعاً جغرافياً للمجتمع الأمريكي . لطالما كانت كل شعوب العالم ممثلة في المجتمع الأمريكي فإنـــه بالامكـــان

تعميم هذا النموذج . أعني أن الأمر في غاية البساطة . فـإذا كانـت كل شعوب العالم هي التي جاءت إلى أمريكا وأصبحت جزء منهـا . فلماذا لا تذهب أمريكا إلى هذه الشعوب وتصنع المجتمع الأمريكـي العالمي .

2 ــ مجتمعات شبه مصنعة :ــ

من التجارب التاريخيـة المختزنـة فـي الـوعي الأمريكـي ، عن المجتمعات التي يمكن إعادة صياغتها أو التدخل لتعـديل بعـض جوانبها ، بما يتلاءم مع المنظور الأمريكي ، هو ما حدث بعد خروج أمريكا إلى خارج حدودها ، واشتراكها في الحرب العالميـة الثانيـة كطرف من أطراف النزاع . إلا أنها كانت أكثرها نزقاً ، إذ لم تتحمل معاناة الحرب لأوقات طويلة بعد (بل هاربر) فسرعات مـا ألقـت بالقنابل الذرية لأول مرة في التاريخ . وقد صعق العالم من هول هذا الأسلوب الجديد كما صعقت أمريكا نفسها ، إذا اكتشفت مدى قوتهـا ومدى ضعف الآخرين ، في تلك اللحظات جلـست أمريكـا وبـدأت تراقب سلوك الآخرين وتحصي أنفاسهم . ثم وضعت برنامجاً كـاملاً للمجتمعات بعد الحرب (لقد كان من آثار الحرب العالميـة الثانيـة إضعاف القوتين التقليديتين في أوروبا ــ المملكة المتحدة وفرنـسا ــ ومن ثم تفجير تحولات أساسية في الوضع النسبي للقـوى العالميـة

وهيكل السياسة العالمية)[1] وكان ذلك في اتجاهين محددين : اتجاه يخص الدول الكبرى التي خسرت الحرب . واتجاه يخص الدول الكبرى المنتصرة في الحرب .

أ . الدول الكبرى المهزومة :ـ

بعد خروج أمريكا خارج حدودها وبروزها على الساحة الدولية كقوة عظمى . حيث حقق لها انتصارها السريع والمفاجئ ، افتتاناً طاغياً بقوتها وقدرتها ، إلى درجة أنها وضعت صياغات جديدة لبعض القوانين والسلوكيات للدول الكبرى المهزومة كاليابان وإيطاليا ونصف ألمانيا ، بما يتلاءم مع مصالحها . حتى إن كان ذلك على حساب اقتصاديات وسياسيات وثقافات هذه الدول . وربطها بمنهج التفكير الأمريكي . وبالفعل سارت هذه الدول وفق المنظور الأمريكي ، إلى درجة أن هذه الدول كانت تتباهي بشهادة حسن السلوك التي تمنحها أمريكا لمن يسير معها . ولما كانت ألمانيا تمثل هاجساً تاريخياً . فقد تم تقسيمها إلى شطرين . شطر ذهب إلى الاتحاد السوفيتي كمكافأة له على ما بذله من جهد حربي . أما الشطر الأخر فكان من نصيب أمريكا التي لم تكتف بالتواجد العسكري بل تدخلت في سلوك نصف الألمان سياسياً واجتماعياً .

---

[1] لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي " جيران في عالم واحد " مجموعة من المترجمين .عالم المعرفة الكويت 1995 ص 27 .

ب . الدول الكبرى المنتصرة :ــ

إن اشتراك أمريكا مع الحلفاء في دحر " النازيـــة " و" الفاشـــية" وجيوش " الميكادو " كان بدافع من أنها تمثل العـــالم الحـــر ، وفـــق المبادئ المعلنة في ذلك الوقت ، فإذا كانت قد تصرفت بحسم مع دول المحور . إلا أن شركائها متورطون أكثر من أعدائهم في الـــسيطرة واستغلال نفوذ القوة . ولما كان من غير المقبول إن تحارب حلفائهـــا مباشرة ، فإنها التجأت إلى تحريض الشعوب المحتلة حتى تتحرر من الاحتلال الذي وصف " بالاستعمار التقليدي " وذلك عن طريق وضع شعارات ومبادئ عامة وبراقة عن الحرية والأمن والعدالـــة ، حتـــى تتخلص هذه الشعوب من الاحتلال القديم وتـــصبح الـــساحة مهيـــأة لأمريكا لكي تحل محل الاستعمار القديم " لم تكن الولايـــات المتحـــدة بحاجة إلى أكثر من خمسين سنة لكي تحل محل أوروبا "[1] .

في البداية ســـارت أمريكـــا علـــى نهـــج الاســـتعمار القـــديم ، إذ رأت أن المشكلة الأساسية في العالم المستعمر هي مشكلة النظـــام السياسي . لذلك فإن كل أعمال أمريكا في هذه الدول سارت في هـــذا الاتجاه . أعني أن صياغة هذه البلدان صياغة جديدة يكون عن طريق تغيير أنظمة الحكم ، إلا أن النتائج كانت في الأغلب في غير صـــالح

---

[1] جان ماري بيلت : " عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة " ترجمة السيد محمد عثمان ــ عالم المعرفة 89 . ص 68 .

هذه النظرة . إلا أنها في الجهة المقابلة أعطتها حقائق جديدة للصراع والسيطرة . وهي التعامل يجب أن يكون مع ثقافات وعقائد هذه الشعوب مباشرة . فأي شيء يمكن أن يكون ذا فائدة لابد أن يبدأ مباشرة مع هذه المجتمعات ، وأن التغيير المطلوب أحداثه ينطلق من هذه المجتمعات ذاتها ، بالكيفية التي تراها أمريكا وبمنهجها .

3 ــ مجتمعات مصنعة :ــ

هي المجتمعات التي تم تصنيعها بصورة كاملة ، وقد استفادت أمريكا من هذه المجتمعات في رسم استراتيجياتها المعاصرة ، وفي تشجيعها للمضي قدماً في تحقيق أهدافها . والنموذج الواضح على هذه المجتمعات هو المجتمع الإسرائيلي ، الذي يجمع خليطاً غريباً من الأجناس لا رابط بينهم إلا الأوهام الأسطورية ، الغريب حقاً أن هذا الخليط تمكن من تكوين مجتمع مصنع وموضوع قسرياً في جسم طبيعي ممتد جغرافياً وثقافياً . ثم أصبح هذا المجتمع نموذجاً إرشاديا لمخططي الاستراتيجيات الأمريكية . خصوصاً في صلاحية تطبيقه في هذه المنطقة .

يحكم الموقف الأمريكي العديد من نقاط الاتفاق والاختلاف مع هذا المجتمع . إلا أن المحصلة النهائية هو الأخذ بهذا الأنموذج في إعادة صياغة المنطقة .

نقاط الاختلاف :ـ

1 . المجتمع الأمريكي نشأ تلقائياً دون تعمد إيجاده ، وقد مر بمراحل عديدة حتى أصبح على ما هو عليه . أما المجتمع الإسرائيلي فأنه مجتمع مصنوع ومتعمد إيجاده على النحو الذي هو عليه الآن .

2 . لم تكن لدي المهاجرين الأوائل لأرض الهنود الحمر ، أية أراء أو أفكار عامة وكلية تجمعهم . الأمر يختلف مع المجتمع الإسرائيلي ، الذي ثم وضع برامجه قبل تنفيذه .

3 . المجتمع الأمريكي لم يكن مجتمع ديانة واحدة ولا كان الدين من الدوافع إلى تكوين المجتمع الأمريكي ، بعكس المجتمع الإسرائيلي الذي قام على أساس ديني ثوراتي صريح ، على الأقل في الشكل الخارجي .

4 . كان الهنود الحمر معزولون ويقفون وحدهم ، ولم يجدوا دعماً أو امتداداً من خارجهم . بينما صنعت إسرائيل على أرض يمتلك أهلها امتداداً تاريخياً ودينياً وثقافياً وجغرافياً مع جيرانهم .

5 . القيم التي تحكم سلوك المجتمع الأمريكي ، هي قيم المنفعة فالحكم على صواب أي عمل أو فكرة بما يحققه من نفع ، وعلى ذلك

فهو صائب وصحيح . أما القيم في المجتمع الإسرائيلي فإنها تكـــون صحيحة وصائبة طالما اتفقت مع تعاليم التواره .

نقاط الاتفاق :ــ

1 . يتفقان في عوامل النشأة التاريخية ، أعني الصورة الخارجية لهذه النشأة . فكل منهما اغتصب أرضاً وفتك بأهلها . هــذا الاتفــاق التاريخي أعطي إحساساً نفسياً مشتركاً بينهما . رغم اختلاف قصدية النشأة ذاتها .

2 . يتفقان أيضاً في الاعتماد على القوة بكافــة أنواعهــا لتنفيــذ السياسات وتحقيق الأهداف .

3 . يتفقان في أن كل مجتمع منهما يتألف من خليط من الأجنــاس المختلفة .

4 . يتفقان في وضع هذا الخلــيط ضــمن فسيفــساء واحــدة . لكل قطعة دورها ومكانها ، على الا تتعارض مع الصورة العامة .

5 . هناك صلة حزبية بينهما " فكل حــزب سياســي إســرائيلي له نظيره في هذه البلاد (أمريكا) وتعمل هذه الأحزاب الــصهيونية

في الولايات المتحدة على اعتبار أنها الفروع الأمريكيـــة للأصـــول الإسرائيلية "[1] .

إن هذه التجارب التاريخية العديـــدة والمختلفـــة ، مـــن العوامـــل الأساسية التي دفعت أمريكا إلى تنفيذ برامجها فـــي إعـــادة صـــياغة المجتمعات وتصنيعها . فقد أعطت هذه التجارب بعداً تاريخياً ممكـــن التنفيذ وبالمواصفات المطلوبة .

العامل الثاني :ــ العلم

إن التطور العلمي المذهل ، الـــذي نـــتج عـــن ثـــورة الفيزيـــاء في بدايات القرن العشرين ، وما أتاحه هذا التطور من إمدادات سخية إلى حد الترف ، لكافة أوجه الحياة ، عن طريق تقنيات بالغة الأهمية والخطورة مكنت الإنسان من اختـــراق الأفـــاق وأعمـــاق البحـــار . ودراسة ومعرفة اكبر المجرات في الكون إلى دراسة ومعرفة أصغر الموجودات . واستطاع تحويل الجسم الصلب إلـــى إشـــعاع وطاقـــة عن طريق تفتيت الذرة ، بالتفجيرات النووية .

وما كاد الحال يستقر للفيزياء حتى جاءت في العقـــود الأخيـــرة من القرن العشرين ثورة علمية أخرى ، تـــسير بخطـــي متـــسارعة

---

[1] الفرد ليانثال : إسرائيل ذلك الدولار الزائف " ت ، عمر الديراوي ، دار العلم للملايين ، بيـــروت 1965 ، ص 26 .

وهي ثورة البيولوجيا ، في صورة متقدمة ودقيقة ، إلى درجة الوصول إلى الجنيات ومعرفة خصائصها . والتحكم في وظائفها . فأصبح في الامكان صناعة لون الشعر ولون العين بل وصناعة الذكاء . كما أن هذه العلوم لم تسمح فقط بمحاربة الأمراض بل بصناعتها سواء في السلم أو الحرب . أي أن الامكانات الهائلة التي وفرها العلم ، أنتجت ما نراه من تقنيات وأدوات ووسائل . سواء في الطب أو الزراعة أو الصناعة أو الفضاء والمواصلات أو في وسائل الترفيه . ويكفي أن نلقي نظرة على تطور الأسلحة لندرك مدى ما حققه العلم من قوة إلى درجة الرعب .

هذه الصورة المختزلة جداً لمسيرة العلم المعاصر وإمكاناته ، انعكست على مخططي الإدارة الأمريكية ، ليس في شعورهم بالقوة والتفوق فقط ، لأن أغلب هذه الإنجازات كانت من نصيب أمريكا ، بل أيضاً في الوصول إلى النتائج ، فطالما تحقق التحكم في أكبر الكواكب والأفلاك وأصغر الالكترونات والجينات ، فإنه سيكون من البساطة التخطيط لصناعة مجتمع ما على النحو الذي تريده " على الرغم من أن العلوم الاجتماعية لا تزال في مهدها وينكر عليها البعض صفة العلم . إلا أن بالإمكان أن نتعلم منها شيئاً عن الوسيلة التي نقنع بها الناس من أجل قبول توصيات ونصائح عالم البيولوجيا بشأن أنواع الفئات الاجتماعية التي يرجح إستيلادها

إذا ما كان لنا أن نستولد أنماطاً بشرية بذاتها "[1] وهذا ليس ذنب العلم لأن العلم في ذاته محايد ، إلا أن وضعه في سياق محدد يجعله يسير في هذا السياق دون غيره . فهو وإن كان هدف إلا أنه في النهاية أداة مثل أية أداة أخرى . كالسيارة فمن الممكن أن تقود سيارتك إلى المسجد أو السوق أو الحانة . ورغم أن سيارتك هي التي أوصلتك إلا أن ذلك لا يعني أن سيارتك هي التي قادتك إلى هذا المكان دون غيره . فالسيارة ــ وكذلك العلم ــ أداة محايدة تصلح للاستخدام في أي اتجاه . وقد استخدمت أمريكا العلم ــ بعلم ــ في تحقيق أهدافها . ومنها استخدامه في صناعة المجتمعات ، كأداة ومنتوجات .

العامل الثالث :ــالتطورات السياسية

من العوامل التي ساعدت في استكمال النظرة الأمريكية ، نحو إمكانية إعادة صياغة المجتمعات وتشكيلها وفق أساسيات وغايات محددة موضوعة سلفاً . تلك التطورات السياسية الخطيرة التي حدثت في أوائل العشرين ، إلى درجة انفجار حربين عالميين متتاليين ومع حدث معهما وبينهما من حروب أخرى خاضتها الشعوب الصغيرة من أجل التحرر من الاحتلال . كانت الحروب الكبرى ــ

---

[1] كرين برينتون : " تشكيل العقل الحديث " ترجمة شوقي جلال ، عالم المعرفة ، 82 ، الكويت 1984 ، ص 365 .

والصغرى ــ مدمرة على نحو لم يسبق له مثيل بفعل تقنيات السلاح . لذلك سعت الدول الكبرى في لحظات مشبعة بالحكمة ، إلى تكوين مجتمع دولي مربوط بنسق من المبادئ والغايات ، تمنع تكرار حدوث مثل هذه الحروب .

فالحرب العالمية الأولى أنتجت " عصبة الأمم " إلا أنه فيما بدأ ــ لم تكن محكمة الصياغة والقدرة ، إذ خرجت من بين أصابعها الحرب العالمية الثانية ، لذلك أخذت الدول الكبرى قراراً بإحكام قبضة الأصابع وعدم تكرار الحروب . ولتوثيق هذا الهدف أنشئت هيئة دولية جديدة في نيويورك ، لتكون شاهداً وحارساً على ذلك . فكانت نشأة الأمم المتحدة الذي كان الباعث الأساسي لوجودها ، هو الحرص والخوف من تكرار حدوث الحروب المدمرة . وهذا يفسر لنا صميم هدفها والذي جاء في صياغتها ، وهو توحيد الرؤية للمستقبل[1] .

إلا أن هذه الرؤية للمستقبل ، لم تكن عادلة ولا متوازنة بين جميع الأعضاء . إنما هي تنفيذ أمين لرؤية المنتصر والأقوى . فإذا ما سادت ــ في لحظة ما ــ رؤية غير المنتصرين أو غير الأقوياء للمستقبل ، أو تعارضت مع رؤية المنتصرين أو الأقوياء ، فإنها لا تصنف رؤية للمستقبل ولا يؤخذ بها ، وذلك هو " الفيتو " المحصور بين المنتصرين والأقوياء . أي أن توحيد الرؤية للمستقبل

---

[1] انظر ، جيران في عالم واحد ، ص 59 .

هو إقرار بتنفيذ رؤية الأقوياء . سواء بحكم القوة أو بحكم المنطق المصاغ به ميثاق الأمم المتحدة . وعلى هذا الأساس لا تصبح الأمم المتحدة كياناً مستقلاً ، إنما أداة وصاية على شعوب العالم في حاضرهم ومستقبلهم . في حالة استمرار هذه الهيئة في المستقبل !! ...

هذا الوضع غير العادل وغير المتوازن ، لم يستمر طويلاً كما هو مأمول ، إذ بدأت تظهر ــ على استحياء ــ بعض التجمعات أو الكيانات السياسية في صيغ جديدة وبعلاقات مختلفة عما هو سائد في صياغات الأمم المتحدة ، وإن لم تناقضها أو تلغيها . والحقيقة أن حلفاء الأمس والذين أقاموا الأمم المتحدة هم أول من اخترقها . فأقامت الدول الرأسمالية الحلف الأطلسي وأقامت الدول الاشتراكية حلف " وارسو " إن قيام هذه الكيانات يعنى وعلى نحو مباشر عدم قدرة الأمم المتحدة على استيعاب التناقضات أو توحيد البشرية في رؤيتها للمستقبل ، خصوصاً في ظل تنامي قوي جديدة لم تكن مسجلة في الأمم المتحدة كألمانيا واليابان وغيرهما .

ومن بين قرني الثور (الرأسمالي والاشتراكي) . خرجت تجمعات أخرى كعدم الانحياز والمؤتمر الإسلامي . كما كانت هناك تجمعات إقليمية أصغر كالجامعة العربية والوحدة الأفريقية وجنوب شرق أسيا وأمريكا للاتينية وغيرها . ثم تفرعت من هذه تجمعات

أصغر ، فالجامعة العربية تفرغت إلى مجلس التعاون الخليجي والاتحاد المغاربي ومجلس التعاون العربي .

كل هذه التقسيمات السياسية كانت بتأثير التطورات السياسية العميقة المتلاحقة حيث حددت اتجاهات الفكر السياسي . وهو ما يبدو في غاية الوضوح في فترة الحرب الباردة ، بين أمريكا والاتحاد السوفيتي . فقد حرصت الدولتان على الاحتفاظ بدرجة برودة بينهما ، وإن كانت كل دولة منهما على حدة ملتهبة . فخوفاً من عودة الاستعمار القديم واستعادة مستعمراته ، تدخلت أمريكا في العديد من الحالات ضد هذه المحاولات . كما حدث في العدوان الثلاثي على مصر . أو الخوف من الانفلات من قبضة حلف وارسو ، تدخل الاتحاد السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا والمجر بشكل مباشر . ورغم ذلك لم تسخن الحرب بين العملاقين إلا في مرة واحدة تقريباً وهي ما يعرف بأزمة الصورايخ السوفيتية في كوبا . إلا أن الأمر سرعان ما عاد إلى البرودة .

أما الحرب الساخنة حقاً بين العملاقين ، فهي التي أدارتها الشعوب الأخرى بمباركة ودعم منهما ، فكانت بقية الشعوب تحترق وتتدمر ، كما انها مجبرة بدفع فاتورة نفقات هذه الحروب . مما أنتج المزيد من الفقر والمرض والجهل والضعف .أما الحرب الساخنة المباشرة بين العملاقين ؛ والتي لم تتوقف رغم فترة الحرب الباردة . فقد كانت

ملتهبة في ميادين أخرى ، إذ اشتعلت حرب الفلسفات والعقائد والتقنيات العلمية والجاسوسية والإعلانات .

كانت هذه الصورة مرشحة للاستمرار أزماناً طويلة ، طالما يحتفظ كل قطب منهما بأسباب قوته ويحافظ على كافة التوازنات . إلا ما حدث في أواخر ثمانيات القرن الماضي ، زلزل أركان الفكر السياسي وأسقط الكثير من الثوابت . إذ استيقظ العالم ذات صباح وهو يري ذوبان الاتحاد السوفيتي على نحو دراماتيكي . وعلى الرغم من أن أمريكا كانت تسعى بشكل جنوني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، إلى إحداث أي شيء في سبيل تحطيم الاتحاد السوفيتي أو إضعافه ... إلا أنها صعقت من هذا التلاشي السحري لهذا الكيان الذي كان عملاقاً ؛ والذي كلفها ما لا يمكن تصديقه من خبراء وعلماء وفلاسفة وأجهزة ودولارات .

في وسط الضجيج الذي أحدثه السقوط السحري للدب المتهجم . وتحت وطأة المفاجأة لأمريكا وفي مقابل ثلاثين مليار دولار دفعتها ألمانيا الغربية لروسيا سقط حائط برلين . وهو حدث يعادل سقوط الاتحاد السوفيتي ، إلا أن وسائل الإعلام والسياسيين لم يروا الصورة جيدا . فقد كان هم الجميع ، بتأثير سنوات الحرب الباردة والدعاية الغربية ، أن يروا جموع الألمان الشرقيين وهم يقفزون إلى القسم الغربي من برلين ، ووقوفهم أمام المحلات والمقاهي . ولهفتهم على

الملابس والمشروبات والآكلات الأمريكية . وكانت هذه الصورة حقيقية لما حدث .... إلا أنها الصورة الخارجية .... وهي لم تكن خاطئة بقدر ما كانت قاتلة .... كما كان أول نجاح حقيقي تحققه ألمانيا الموحدة لأنها ــ وبشطارة فائقة ــ سوقت الصورة بعقلية الحرب الباردة .... وابتلع الساسة المحنكون في الدول الكبرى بما فيهم أمريكا .... الطعم .. ولم يهتموا بعمق المغزى لسقوط حائط برلين ... رغم رؤيتهم له أثناء سقوطه ... فقد ظلوا يبتسمون في رضي حقيقي واعتبروه من التداعيات الإيجابية لتلاشي الاتحاد السوفيتي ، وإضافة جديدة للقطب الوحيد الذي لا يزال قائماً وانتصاراً له .

إلا أن الأمر كما بدأ في وقت لاحق ، لا يسير في هذا الاتجاه ... عندها أخذ مستشارو البيت الأبيض يحكون رؤوسهم ، كعادتهم ، بحثاً عن حلول مثيرة ومدهشة لهذه الأحجية الألمانية .. ففي الوقت الذي أصبح فيه العالم يتسع أمام أمريكا وتصبح سيدته الوحيدة ، فطنت إلى هذا النمر ذو الملمس الناعم الذي ظهر فجاءة في حديقتها الأمامية .. بعد تفكير عميق توصل مستشارو البيت الأبيض إلى مشارف حل هذه الأحجية . وذلك حينما فتشوا في ثنايا عقولهم عن قديم يفيد في مثل هذه الأمور . فهم لا يريدون إضاعة الفرصة ــ والوقت ــ في السيطرة على العالم ، كما أنهم يريدون إثارة هذا النمر أو غيره ... كان الحل الذي تفتق في أذهان المستشارين ذوي السمعة

المرموقة ، على أنه يمكن الاستمرار في سياسة امتلاك العالم والضرب بقسوة وقوة وحزم ، لبعض الشعوب التي يمكن التغلب عليها بسهولة دون خسائر تذكر . حتى يفهم النمر الألماني ــ وغيره ــ في ما يمكن أن يحدث له إذا أثار غضب أمريكا ...

فيوغسلافيا وأفغانستان والعراق ــ وغيرهم ــ لم يكونوا يشكلون خطراً مباشراً وحقيقياً لأمريكا ، إلا أن سوء طالعهم وضعهم ــ بالصدفة المنتقاة ــ مادة للدرس . أعني أن هذه الدول لم تكن مقصودة لذاتها ، إنما استخدموا لكي يري ويفهم العالم القوة والقدرة الأمريكية ــ من ناحية ومن ناحية أخرى فإن حملاتها لا تريدها أن تكون عسكرية فقط . لذلك نجدها تسعي وبجدية إلى تعميق الرؤية الأمريكية وفرض أسلوبها . بمنهجية وتحت شعارات براقة وفي أجواء هوليودية جذابة ، لأنها اكتشفت ومنذ زمن طويل إن الاحتلال العسكري لا يفيد وحده . لذلك فإن المطلب الأساسي هو إعادة التركيبة الذهنية لهذه الشعوب . وفق المواصفات الأمريكية . وهذا يتطلب إما إلغاء تاريخ هذه الشعوب أو تعديله وكذلك التحكم في الحاضر والمستقبل كما حدث في العراق بتدمير متحفه وحماية وزارة النفط .

العامل الرابع :ــ الاقتصاد (حرب الدولار)

هذا العامل من أساسيات النظرة الأمريكية في إعادة صياغة المجتمعات ، بل تعتبره أكثرها جدوى وتأثيراً . وهذا راجع

إلى المبادئ الفلسفية العامة التي تحكم النظرة الأمريكية . وهي نظرة عملية تقيس قيمة أي شيء بما يحققه من نفع وفائدة وقد تواصل الجهد الأمريكي المدعوم بإمكانات اقتصادية فاحشة الثـراء ، فـي إبـراز النزعات الفردية الاستهلاكية . مما جعل منظر العـالم يبـدو وكـأن النظرة الأمريكية اكتسحته فرداً فرداً ، خصوصاً في ظل فقر وحرمان معظم سكان الأرض .

إن القوة الاقتصادية الطاغية والوعي بهذه القوة ، لا تستلزم فقـط التخطيط المنهجي الدقيق لاستغلالها ، إنما تسييرها لتحقيـق أهـدافاً محددة . مما يعني أنها تصبح سلاحاً ذا فاعلية مؤثرة . فالمال يطور العلم والعلم ينتج التقنية التي تعني المزيد مـن المـال . بالإضـافة إلى التحكم فيمن يشتري هذه التقنية . وعلى الرغم مـن أن أمريكـا ليست أغنى مكان في العالم من حيث مخزون الثـروات ، فأفريقيـا تضاهيها ، إلا أن أمريكا ــ كدولة واحدة ــ عرفـت كيـف تـستفيد من ثرواتها على نحو بارع . بينما ثروات أفريقيا تتقاسـمها العديـد من الدول ولا تستغل ثرواتها بصورة واحدة ، مما يدفع هذه الـدول إلى جلب من يستغل لها ثرواتها لذلك يظل نصيب هذه الـدول مـن ثرواتها ضعيفاً بل مجحفاً ، إلى درجة انها تكلفها المزيد من الـديون وما ينشأ عنها من مشاكل سياسية واقتصادية ، فتلجـأ إلـى طلـب العون ، وهنا بالضبط دور البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وهما

مؤسستان لا تختلفان عن البنتاجون فـــي الأهـــداف إلا أن الـــسلاح هنا هو الدولار وأساليبهما المنح والهبات والإعلانـــات والمـــساعدات والقروض بمختلف درجاتها .

كانت حرب الدولار (بما فيهـــا المنتجـــات الأمريكيـــة) تـــسير على نحو يرضي البرامج الأمريكية ، ولم يكن هناك مـــا يمنـــع دون المضي قدماً نحو المزيد من التغلغل والتحكم ، خصوصاً وإن الدولار لم يكن فقط هو الضامن لأرصدة العديد من الدول ، بل يكاد أن يصبح هو عملة التداول في المعاملات الفردية اليومية بين الناس في العديـــد من مناطق العالم .

إلا أن قيام كيانات جديدة تسعى إلى تكـــوين تكـــتلات اقتـــصادية مستقلة ، عكر صفاء الصورة أمام المزاج الاقتـــصادي الأمريكـــي ، لأن هـــذه الكيانـــات تريـــد أن تـــدير إمكاناتهـــا بطريقتهـــا بعيـــداً عن المواصفات الأمريكية ، مما يعني حرمـــان اقتـــصاد الأمريكـــي من موارد فعلية أو محتملة . إلا أن ذلك لم يكن ليزعج أمريكا بدرجة كبيرة إلى حد فقدان الصبر ، لانها تعرف وعلى نحو دقيق وتام كيف تدبر أمورها مع هذه الكيانات ، مثلما حدث مـــع النمـــور الآســـيوية وما أصابها من مشاكل معقدة وانهيارات . ثم الالتجاء إلى إصلاحات ذات طابع أمريكي " إن الجبروات الاقتصادي والعسكري للولايـــات المتحدة هو الذي مكن العهد الأمريكي من البقاء بعد العام **1945** لقـــد

كان ذلك مسعى سياسياً مقصوداً لإعادة فتح الاقتصاد العالمي ، وقد أصاب نجاحاً مشهوداً .. غير أن الهيمنة الأمريكية كانت متعددة الأبعاد ، ولا يبدو أن هذه الهيمنة قد انتهت بالتمام .. فمن الناحية العسكرية لا تزال الولايات المتحدة مهيمنة ، بمعني أن قواتها تضمن ألا تستطيع أي دولة أخرى استخدام جبروتها السياسي بتغيير بنية الاقتصاد العالمي "[1] .

ان قيام الكيانات الاقتصادية المختلفة ، لم يكن يزعج أمريكا أما ما يزعجها حقاً هو تغيير الأنماط الاقتصادية وما يحدثه من إنفلات اقتصادي لا يحمل ملامح محددة ومألوفة . ومن تغير بعض الثوابت فلا يعد الاقتصاد في ظل كيانات متعددة وقوية ، محصوراً في نطاق دولة واحدة وبشروطها ولا لعدة دول ، إنما أن يكون الاقتصاد " فوق إقليمي " أو " عابر للقوميات " . كما يفقد المنتج والمستهلك مكانهما التقليدي ويبرز دور الوسيط . فأصبحت مناطق العبور ــ ترانزيت ــ أكثر أهمية من مناطق الإنتاج ومناطق الاستهلاك .

ولكي لا تفلت الأمور بصورة كلية ، اتجهت أمريكا إلى مناطق العبور ــ كالخليج العربي ــ وضمنت تواجدها فيه . كما أسرعت إلى إعلان التجارة الحرة وربطها بقوانين محددة في اتفاقيات الجات .

---

[1] بول هيرست وجراهام " ما العولمة " ، ترجمة فالح عبدالجبار ــ عالم المعرفة 273 ، ص 28 .

ولإصباغ الطابع الأمريكي ، فقد تم إعلان العولمة الاقتصادية كقفزة استباقية لما يمكن أن يحدث . ومحاولة لإلغاء الحدود التي يفترضها قيام الكيانات المختلفة . ويصبح للشركات الأمريكية الدور الأساسي في صياغة الاقتصاد العالمي ، على نحو يتفق مع الرؤية والمصالح الأمريكية . فالعولمة الاقتصادية في التحليل النهائي هو أمركة الاقتصاد العالمي ، على الأقل في صياغته الأساسية . وبذلك يكون الاقتصاد العالمي المحكوم بالقبضة الأمريكية ، من العوامل التي تدفع أمريكا إلى إعادة صياغة العالم ليس في التحكم في المنتج والمستهلك بل وفي الوسيط ، أي في الحالة الذهنية لكل هذه المراحل والمواد ... وهي الحالة التي تسعى أمريكا إلى تصنيعها عن طريق إعادة صياغة العالم وتشكيل علاقات جديدة تحت شعارات الحرية والديمقراطية .

العامل الخامس :ــ الإعلام

إذا كان الإعلام بكل وسائله هو صناعة ، سواء بالمعني الحرفي أو بالمعني الفني ، لذلك فهو أكثر العوامل قبولاً وطواعية لتحقيق أهداف مقررة ومرادة . وبالفعل فقد حقق الإعلام الأمريكي ما لم يحققه أي عامل أخر ، سواء في تحقيق الأهداف مباشرة أو في تحسين الصورة وتجميلها أو تقبيحها . إلى درجة أن المقاييس الأمريكية تكاد تكون هي الصورة النمطية المطلوبة ، ومثالاً يسعى الجميع إلى تطبيقه ، ليس في الشكل فقط بل في مضمون العمل

من حيث الرؤية والقيم . فالأفلام والموسيقي والمجلات والبرامج الإذاعية والإعلانات ، محكومة بالنظر والمواصفات الأمريكية . وقد أثرت في العديد من الثقافات المختلفة ، فنجد تأثير ذلك واضحاً في شكل وجمال أبطال الأفلام والمسلسلات والإعلانات وطريقة التعامل والحركة والملابس ومضامين الحوار ومنطقه وفي الإشادة بقيم معينة ونبذ أخرى ، دون النظر إلى مجتمعاتها المحلية التي تتناقض تناقضاً تاماً مع ثقافة المجتمع الأمريكي .

فإذا كان للجمال الأمريكي مواصفاته ولذلك فهو رائع ، أعني باعتباره جمالاً أمريكياً فحسب ، فكذلك لكل بيئة مواصفاتها الجمالية الخاصة بها وهي رائعة وفق مواصفات هذه البيئة . فإذا لاقت استحساناً وقبولاً من بيئات أخرى ، فذلك يرجع إلى خصوصيتها المحلية وليس إلى أنها تتوافق مع مواصفات الجمال الأمريكي ، فمن حق الأمريكي أن يتباهي بثقافته ويحاول أن تكون مثالاً عالمياً فهذا أمر شرعي ومباح ، أما أن يحاول أن يسخر من ثقافات الأخرى بصورة غير صحيحة ومتعددة ، أو أن يرغمهم على الأخذ بثقافته باعتبارها الثقافة الوحيدة فهذا موقف غير سليم ، كما أنه يعطي للثقافات الأخرى حق الرد بل والهجوم ، ولا يصبح الحق هنا هو الدافع إنما سيكون الدافع هو الدفاع عن الكيان بأية طريقة .

إن الفهم العميق والدقيق الذي يظهره الإعلام الأمريكي لعناصر ثقافته ، لم يكن بالقدر نفسه من الفهم للثقافات الأخرى . لذلك فهو لا يدقق في تفاصيلها أو هو غير معني بها ، وحينما يقدم صوراً عن هذه الثقافات ، فهو يقدمها في صورة نمطية غير صحيحة ، مثلما يقدم صورة العرب والصينيين واليابانيين وغيرهم . وهذا لا يمثل سوء فهم بقدر ما يعني ممارسة التضليل ــ الأمر المذهل حقاً هو أن أمريكا نفسها وقعت ضحية هذا التضليل إلى درجة التصديق . ولم تنتبه إلى ما تحتويه الثقافات الأخرى من عناصر مختلفة لها قيمتها . أو ربما تكون متعمدة إلى سيادة هذا التضليل ، من أجل إفساح المجال لقيمها .

إن التفوق التقني الواضح للإعلام الأمريكي ، أعطي لصناع القرار الأمريكي دعماً نفسياً وسياسياً ، للاعتقاد بأن شعوب العالم وقعت أسيرة للثقافة الأمريكية ، وإن الإعلام شكل ذهنية جديدة أو على الأقل تكوين ذهنية قابلة لاعتناق الصورة الأمريكية . بل ربما اعتقدوا بأن الثقافة الأمريكية أصبحت مطلباً ملحاً لهذه الشعوب ، لذلك يصبح من السهل إعادة تشكيل ثقافة هذه الشعوب وفق ما هو مطلوب وتتم صناعتها أمريكيا .

سادساً :ــ عوامل أخرى

إلى جانب العوامل السابقة ، هنـــاك عوامـــل أخـــرى مختلفـــة، وإن لم تكن أمريكية صرفة ، وهي في الغالـــب غريبـــة اســـتخدمتها أمريكا وساهمت فيها ، تحت شعارات التمدن والرقي والمعاصـــرة . فقد تخلت معظم شعوب العالم ــ دون مبرر ــ عن طرزها المعمارية الخاصة بها . وأخذت طراز المعمار الغربي .. ولمـــا كـــان البيـــت هو ترجمة للواقع الاجتماعي والنفـــسي والجمـــالي ، فـــإن الانتقـــال إلى بيوت غريبة عن البيئة الاجتماعيـــة والنفـــسية والجماليـــة لمـــن يستخدمها ، خصوصاً إذا كانت هذه البيوت تعكس واقعـــاً اجتماعيـــاً ونفسياً وجمالياً مخالفاً لما هو سائد في هذه البيئات فـــإن فـــي ذلـــك إضرار وتشويه لأفراد البيئة الأصلية التي تخلت عن طرازها .

فالمبني ليس مجرد حجـــارة وجـــدران توضـــع كيفمـــا أتفـــق ، إنما هي التجسيد الخارجي للبيئات الثقافية الاجتماعيـــة والنفـــسية ــ لأي شعب أو حضارة . وبدلاً من أن تستخدم هذه المجتمعات التقنيات العالية في تحسين وتجويد طرزها المعماريـــة ، استـــسهلت الطـــرز الغربية واستخدمتها في مقابل إهمال طرزها الخاصة ، لأن المحافظة على طراز المعمار يستهلك جهداً مبدعاً . وهذا ما لا سبيل إليه . لهذا أصبحت العمارة في العالم كله تكاد تكون واحدة ، إلا فـــي منـــاطق

محدودة حيث احتفظت بعض المدن بطباعها القديم المميز ، ليس لذات المدن ، إنما لأنها تمثل موارد اقتصادية خصبة .

فمدن العالم كلها متشابهة ، المطارات والمؤاني ومحطات القطار والشوارع والمباني الصغيرة وناطحات السحاب ، كلها تتشابه بطولها وعرضها وتصميماتها وليس في إمكان المرء معرفة الشارع أو المدينة إذا ما نقل إليها دون علم مسبق وإذا ما أزيلت كل الكتابات والإعلانات من الشوارع . فالمدن والشوارع أصبحت ذات طابع واحد وهو طابع غربي التصميم والتنفيذ .

الأمر ذاته حدث مع الأزياء ، فكل المجتمعات وفي لحظات غير مبررة أو غير مفهومة ، خلعت ملابسها المحلية وارتدت التي ــ شرت والجينز والسموكن وفساتين السهرة اللامعة شبه العارية . كما تزينت النساء بالأصباغ ومستحضرات التجميل الغربية ، على الرغم من أن الغرب صنع هذه المستحضرات في البداية ، حتى يساعد النساء في شمال أوروبا ، على تغطية بعض العيوب في بشرتهن بسبب ظروف الطقس . لان البشرة الناصعة البياض ، لا تستطيع أن تخفي بعض العيوب " الأمر الذي تكفلت به الشمس في بلاد المشرق .. ورغم ذلك نجد نساء الشرق أكثر استهلاكاً لمستحضرات التجميل حتى يصبحن في جمال الغربيات لأنه ــ في رأيهن ــ هو نموذج الجمال .

على الرغم من أن القيم الجمالية والفنية ، هي قيم نسبية ، فلكل مجمع قيمه ومعاييره الخاصة به . إلا أن الغرب وبفضل السينما والتلفزيون في الغالب ــ استطاع أن يفرض قيمه . ولما كانت هذه صناعة أمريكية متقنة ، فقد تم تعميم القيم الفنية والجمالية الامريكية لتحل محل القيم الفنية والجمالية المحلية فقد انقرضت صناعة الأزياء المحلية وانقرض النساجون والصناع ، ومن بقي منهم فضل فتح محلاً لبيع التيشيرت والجينز ، بديلاً عن مصنعه الذي كان في الإمكان تطويره وتحسين الأزياء .

كما يظهر الانتشار الواسع للمنتجات الأمريكية في المأكولات والمشروبات فقد أصبحت الهمبرجر والكورنفليكس والمشروبات بكافة أنواعها من أساسيات المطاعم السريعة في العالم .. كما انتشرت أدوات اللعب والتسلية وأصبحت أمراً عادياً ومألوفاً بين مختلف شعوب العالم .. إن كل هذه الأمور الكبيرة والصغيرة ، المهمة والبسيطة ، هي من العوامل التي ساعدت على تعميم النمط الأمريكي ، ودعمت الاتجاه باعتقاد الأمريكيين ، بأنه يمكن استثمار كل ذلك في إعادة تشكيل ذهنية هذه الشعوب بصورة كاملة وحاسمة ونهائية . وهذا هو المقصود بتلك الكتابات التي تقرر بأن الحقبة الأمريكية هي نهاية التاريخ . أي صنع العالم وعلى نحو جذري لكي يكون أمريكياً وحينما يتم ذلك فإن تفوق أي شعب سيكون في حقيقته

تفوقاً أمريكياً . أي أن العالم لابد له أن يرتـــدي التـــاريخ الأمريكـــي وكذلك المستقبل .

إن العوامل السابقة تعتبر من الـــدعائم الراســـخة فـــي النظـــرة الأمريكية ، نحو الاتجاه لتصنيع المجتمعات ، إلا أنها كعوامل متفرقة ومنفردة ، لا تستطيع أن تحقق النتائج المرجوة منها . ما لم يكن هناك منهج واضح ومحدد ، يجمعها كلها في إطار رؤية واحدة وواضـــحة وشاملة .

يتسم المنهج الأمريكي هنا بأية لم يأت من خارج العوامل السابقة المختلفة ، إنما هو نابع منها ويستند عليها ، كما أنه يربطهـــا بـــشكل محكم ، فهو ليس مائعاً ولا صارماً بصفة حادة ، بل يتصف بالمرونة والتحديد . أو " المرونة المتماسكة " فرغم عمومية المنهج المستخدم ، إلا أنه غير محدد الملامح بصورة قاطعة فالمرونة تمنحه القدرة على أن يكون في أي شكل . إلا أن الشكل ــ أيا كان ــ محدد ومحكـــوم ولـــه أنـــساقه التـــي لا يمكـــن أن يتخطاهـــا و إلا انقلـــب الـــسحر على الساحر .

هذا ما نلاحظه من تطبيق أمريكا لهذا المـــنهج ، فهـــي تراعـــي اختلاف ثقافات الشعوب ، من أجل تـــصعيد أو تخفـــيض درجـــات الفعل . كما أنها تراعي اختلاف المواقف لثقافة واحدة ، فتتعامل معها كل في اتجاه يختلف عن الأخر . إلا أنها مربوطة بالمنهج الأمريكـــي

ذاته .: وهذا يبدو واضحاً في حالات محددة كيوغسلافيا وأفغانستان وفلسطين والعراق . الذي يختلف في ظاهره مع موقفها من إيران وكوريا الشمالية . أو مع فرنسا وألمانيا . أن تعامل أمريكا مع هذه الحالات قد يبدو مختلفاً للنظرة الخارجية السريعة ، ولكن ذلك ليس كل الحقيقة لأن اختلاف التعامل . يرجع أساساً إلى خصوصية الحالة نفسها . إلا أن كل الحالات محكومة بنسق المنهج الأمريكي . قياسياً على ذلك فإن من يقول بأن أمريكا تكيل بمكيالين ، يرتكب خطأ واضحاً لعدم فهم المنهج الأمريكي على صورته الصحيحة . فما نراه مكيالين إنما هو مكيال واحد فقط إلا أنه مكيال أمريكي . فأمريكا لا ترى إلا بعينيها وإن ما تراه حقيقة واحدة لا حقيقتين ؛ لها مكيال واحد وواحد فقط هو القوة على أي نحو . فالقوة هي الحق والقوي هو صاحب الحق . ربما تكره أمريكا القوي ، إلا أنها لا تستطيع أن تلغي اعترافها بقوته .

في العالم العربي والإسلامي ، نستطيع أن نرى تطبيق المنهج الأمريكي حيث يسير في اتجاهات مختلفة .. ورغم تعدد الاتجاهات ، إلا أنها تصدر عن إرادة واحدة . فاتجاه يحاصر ويدمر ويقتل ، واتجاه يمدح ويربت على الأكتاف ويمسح الذقون وثالث يعطي المنح والقروض . فكل حالة لها موقف خاص بها أي المرونة في التعامل

مع جميع الحالات ، إلا أنها مرونة محددة ومربوطة بنسق المنهج الأمريكي العام .

إن الصورة التي تمتلكها أمريكا عن العالم العربي والإسلامي تتكون من اتجاهات عديدة لها أنماط مختلفة بدرجات متفاوتة . فحينما تريد تسويق صورة العربي في إعلامها ، فهي تعطيه صورة نمطية واحدة . أما حينما تريد التعامل معه فهي تدرك اختلاف الاتجاهات وإن لكل اتجاه أنماطه . ولكل نمط درجاته أعني انها صورة بالغة التعقيد والتداخل . ويمكن توضيح صورة العالم العربي والإسلامي التي تمتلكها عنه امريكا في الآتي :ـ

1 ـ اتجاه حضاري :ـ

أ . **الصورة الأولى :ـ** صورة لشعب ضعيف مشتت ، يعيش في الصحراء على هيئة عشائر وقبائل متناحرة . لا يحمل هوية محددة ، على استعداد دائم لتنفيذ أوامر شيخ القبيلة . أما حياته الخاصة فهي محصورة في الاستمتاع الآني باللذة الحسية ، التي يسعى إليها وبأية وسيلة . وطريقة التعامل معه يكون إما بتأمين لذاته وإشباع جشعه ، أو بالأدوات الحربية القوية والمباشرة أو بالتفاهم مع شيخ القبيلة .

ب . الصورة الثانية :ــ وهي صورة تــدركها أمريكــا جيــداً ، وهي صورة لشعب متدين تمتد جــذوره الحــضارية إلــى أعمــاق التاريخ . وقد استطاع الانتصار وبــصورة حاســمة فــي المعــارك الكبرى ، كما أقام حضارة بالغة الرقي سيطرت على كل العالم القديم تقريباً .

إن طريقة التعامل مع شعب يدرك قيمته ويشعر بذاته الحــضارية والدينية حتى في أسوء حالات ضعفه ، تختلف عن الطريقة الأولى . هنا يكون التعامل بزيادة تضخيم الإحساس بالذات وربطة برباط محكم بالماضي ، في مقابل إغفال الحاضر والمــستقبل . أي أن التعامــل لا يمكن أن يكون عن طريق تحقيره أو ازدراء تاريخه ، إنما إعداده نفسياً وحضارياً لكي يدخل المصيدة في ثقة . ومن هنا جاءت كتابات مثل " صدام الحضارات " التي تحاول فرض وجوداً حقيقيــاً لأشــياء وهمية غير موجودة بالفعل .

فالقول بصدام الحضارات ، يفتــرض ان الحــضارة الإســلامية " الآن " ، هي حضارة واحدة . وهذا غير صــحيح . فهــي " الآن " ليست حضارة واحدة إنما هي متعددة بتعدد دول المؤتمر الإسلامي ، وكل دولة تختلف عن كل دولة أخرى فــأين التــصور الحــضاري الإسلامي الواحد بين هذه الدول . التي تصارع الحضارة الغربيــة ؟ وأين هو التصور العربي الواحد المتفق عليه بين أثنــين وعــشرين

دولة ، كل دولة منها هي عربية وتختلف عن كل دولة عربية أخرى ؟ .....

لذلك فإن القول بصدام الحضارات هو وسيلة نفسية دعائية ، أو هي عزاء نفسي مسبق يقدم للدول العربية والإسلامية ، لأن أمريكا تريد وتسعى لهذا الصدام إلا أنها لا تريد الإعلان عنه بشكل سافر . كما أنها ــ من باب العدالة كما ترى ــ تريد بالقول بصدام الحضارات ، إعطاء العرب والمسلمين راحة نفسية وإرضاء غرورهم التاريخي ، بأنهم ــ على ضعفهم ــ إنما يواجهون أكبر قوة وجدت في التاريخ . ولما كان الصدام كما تريده أمريكا حتمياً لأن نتائجه محسوبة ، فإنها تريد إرضاء الجانب الأخر بأنه في الواقع يخسر أمام أكبر قوة عرفها التاريخ . وهذا يرضيه وإن لم يغير من وقائع هزيمته شيئاً . أي أن المطلوب قبول المواجهة والإقرار بالهزيمة .

2 ــ اتجاه سياسي :ــ

كما تمتلك أمريكا أكثر من صورة سياسية للعالم العربي والإسلامي منها :ــ

أ . **الصورة الأولى :ــ** وهي صورة لشعب مفكك سياسياً ليس لديه رؤية سياسية ، وهو في الغالب غير مبال ولا يهتم بأمر من يحكمه ، طالما يحقق له منافعه ومصالحه الذاتية . بل أنه

إلى حد ما يكره حكامه ويحقد عليهم !! .. والتعامل مع هذه الصورة يكون عن طريق وضع الشعارات البراقة والجذابة والمغرية ، عن الحرية والديمقراطية والرخاء والثروة .

ب . الصورة الثانية :ـ هي صورة لشعب يمثل الحاكم رمزاً وطنياً وهو جزء من التراث التاريخي والثقافي لهذا الشعب ، كما تتجسد فيه صورة المستقبل . إن التعامل مع هذه الصورة يكون عن طريق وضعها في معادلة إعلامية ونفسية ، بين الحاكم وشعبه وهو ما حدث بالنسبة لأسامة بن لادن والملا عمر وياسر عرفات وصدام حسين . ففي الوقت الذي كانت تدمر فيه بشكل شبه كامل أفغانستان وجنين ورام الله وبغداد ، ويقتل مئات الآلاف من هذه الشعوب . كانت المعادلة بالتركيز على الحاكم . هل هو حي أو قتل ؟! .. هل جرح أو لا يزال سليماً ؟! .. هل دخل دورة المياه أم أن الدبابات دخلت مكتبه ؟! .. أعني الاهتمام بكل التفاصيل التي تشغل الأذهان ، حتى تحمل توازناً نفسياً مع ما يدور من بشاعة حقيقية في جبال أفغانستان وشوارع فلسطين والعراق !! ..

ففي مقابل قتل الآلاف وتدمير المدن والمتاحف التاريخية ، فإنهم يضعون ذهاب الحاكم إلى دورة المياه كمعادل نفسي لها . وحينما يخرج الحاكم من دورة المياه ويروي عطشه ، فإن عليك أن تشعر بالانتصار دون أن تلقي نظرة إلى خارج مكتبه ، لترى البيوت

المدمرة وجثث أفراد الشعب المبعثرة في الشوارع ورؤوس الأطفال المثقوبة بالرصاص ، ورائحة احتراق جثث النساء الحوامل . فالتعامل الأمريكي هنا يرتكز على حبس الأنفاس من جهة ومن جهة أخرى إعطاء راحة مزيفة ووهمية بين الحين والأخر . ثم الانتظار لتشكرهم على هذه الراحة !! ..

3 ــ اتجاه اقتصادي :ــ

كما تتعد اتجاهات الرؤية الأمريكية للعالم العربي والإسلامي ، من الناحية الاقتصادية إلى عدة إنماط مختلفة ، بل وأحياناً متناقضة . وتتعامل مع كل نمط وفق سياقه الخاص به ، وهو ما عرفناه باسم منهج " المرونة المتماسكة " ووفق هذا المنهج يمكن النظر إلى العالم العربي والإسلامي بصورتين أساسيين هما :ــ

أ . **الصورة الأولى :ــ** صورة لشعوب تمتلك ثروات ضخمة ، إلا أنها غير موزعة بالتساوي بين أجزاء الوطن العربي . وبمنطق السوق فإنه يعتبر ثرياً ثراء فاحشاً . أي يمتلك قوة يمكن أن يساوم بها بل ويستطيع أن يستخدمها كسلاح وعن طريقها يستطيع تعديل أي ميزان يمكن أن يختل أمامه . والتعامل مع هذه الصورة يكون بعقد الصداقات الحميمة والتي يفرح بها العرب مع تقديم جميع أنواع الخدمات والتقنيات ووضعهم في الصفوف الأمامية في أي عرض أو احتفال .

ب . الصورة الثانية :ــ هي صورة لشعب مستهلك في جهل وغير منتج . ويفضل المنتوجات العالمية مهما كانت رداءتها ، في مقابل ألا يعمل أو يبدع . وطريقة التعامل مع هذه الصورة ، هو إجباره على الشراء والإنفاق على المنتوجات التي تريد أن تبيعها له . ولا يهم أن كانت تلائمه ، أو لا تلائمه ، واستثمر أمواله حتى في مجال السلاح الذي تقتل به أولاده وأخوته ، بشرط ألا تخبره علناً بذلك . وأسعده بالربح الذي يحققه وإن عرف فأخبره أن " البزنس " لا مشاعر له .

كما تمتلك أمريكا صورة مختلفة عن العالم العربي الإسلامي في مجالات الإعلام والصحة والعلوم والزراعة والمواصلات وغيرها . ولذلك فهي تتصرف وفق هذه المعرفة ، مع استخدام مناهج جديدة تؤدي إلى غايات أولية وصولاً إلى الغاية الكبرى . أي إعادة صناعة المجتمعات العربية والإسلامية تمهيداً لأمركة العالم كله . فإذا كان العديد من الساسة والحكماء العرب ، يحذرون من خطورة الموقف الأمريكي إزاء العلم العربي والإسلامي ويعتبرون ذلك (سايكس ــ بيكن) جديدة إلا أن هذا ــ رغم صحته ــ ما هو إلا المظهر السياسي للمشروع الأمريكي . أما حقيقة المشروع فهو أعمق من ذلك وأخطر . إذ هو صناعة مجتمعات عربية جديدة ، تكون بديلاً أمريكياً للمجتمعات القديمة القائمة الآن . وتعاملها مع هذا

الهدف لن يكون على نهج الأحتلال الغربي التقليدي ، أو بالاعتماد على نحو كلي على حكمة أوروبا العجوز ــ كما يقولون ــ إنما هم يسعون إلى تحقيق أهدافهم بدقة وبصورة متصاعدة معتمدين على قراءات متمعنة وفاحصة لهذا العالم ووسائل تنفيذها عن طريق قوة عسكرية خرافية .

إلا ان ما تسعى إليه أمريكا يقوم على قراءة خاطئة . لان هذه القراءة لتاريخ شعوب العالم ــ والمنطقة العربية بالذات ــ ولقيمهم الدينية والاجتماعية ، هي في النهاية قراءة أمريكية . أعنى أنها ليست صحيحة بالضرورة ولا هي ملزمة . كما أن الاستناد إلى القوة العسكرية في تنفيذ الأهداف هو استناد خالي من الحكمة وغير مؤثر بصورة جذرية ، لأن القوة العسكرية ــ وكما يقول برتر اندرسل ــ كالطبل هو أعلى الأصوات في الفرقة الموسيقية ولكنه أكثرها تجويفاً . ورغم أن أمريكا استوعبت الدرس فأحضرت فرقاً موسيقية كاملة .. أي لم يعد الأمر مجرد احتلال عسكري واكتساب أرض ، إنما الهدف هو القفز داخل كيان كل فرد من أفراد الشعب .

إن ما حدث من أحداث مأساوية ، وما تسعى أمريكا إلى تحقيقه ، هو أمر بالغ الخطورة ، إلا أنه لا يعني الموت والفناء ؟ لأننا رغم كل ما حدث نستطيع أن نسأل " لماذا كل هذا ؟ ! " ولماذا هذه المنطقة أولاً ؟! ..

أن الإجابة على ذلك في غاية الوضوح فأمريكا تريد سيادة العالم . وهذا الهدف يستحق دوياً بحجمه . أما هدفها من هذه المنطقة فلان هذه المنطقة معبأة إلى حافتها بالتاريخ والأديان والعقائد والسحر والثروات والجهل ، أي تمثل عقبة أولى في تحقيق الأهداف الأمريكية كما أنها مثالية في حسم الصراع والاستفادة من الدرس . لذلك فبدلاً من مواجهة المنطقة عسكريا فقط ، فإن الحل يكمن في القفز داخل هذا القمقم والعبث به وإعادة تركيبه وصناعته أمريكياً .

ولما كانت هذه المجتمعات ــ كما ترى أمريكا ــ يمكن تصنيعها ، فإننا أما أن نتفحص ما لدينا من أسباب القوة والضعف ، وتطوير عقولنا وإمكانياتنا واكتساب مهارات جديدة ، تتفق مع قيمنا الدينية والاجتماعية وتلائم ظروفنا . وهذا يحتاج إلى ذهنية واعية وجهود حقيقية متواصلة . عندها لن نجد أمريكا ما تصنعه فينا أو ننتظر لكي تصنعنا أمريكا على طريقتها .

المراجع

1 . كرين برينتون : " تشكيل العقل الحديث " ترجمة شوقي جـــلال ، عالم المعرفة ، **82** ، الكويت **1984**.

2 . الفرد ليانثال : إســـرائيل ذلـــك الـــدولار الزائـــف " ، ترجمـــة عمر الديراوي دار العلم للملايين ، بيروت **1965**.

3 . لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي " جيران في عـــالم واحـــد " مجموعة من المترجمين .عالم المعرفة الكويت **1995** .

4 . جان ماري بيلت : " عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة " ترجمة السيد محمد عثمان ــ عالم المعرفة **89** .

5 . بول هيرست وجراهام طومبسون " ما العولمة " ترجمـــة فـــالح عبدالجبار ــ عالم المعرفة **2001** .